

تشظي الهوية وانشطار الذات في الخطاب الروائي الجزائري ما بعد الكولونيالي:
قراءة في روايتي "الانطباع الأخير" و "ما لا تذرؤه الرياح".

The fragmentation of identity and the splitting of the self in post-colonial Algerian fictional discourse: a reading in "the last impression" and "what is not dispersed by the wind".

طالبة/الدكتوراه: نبيلة فراحتية
الأستاذة/الدكتوراه: نعيمة بوزيدي

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة البليدة (2) - البليدة - الجزائر.
مخبر انتماء طالب الدكتوراه : مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة البليدة (2)
en.ferahtia@univ-blid2.dz

تاريخ القبول: 2021/03/15

تاريخ القبول: 2020/12/07

تاريخ الإيداع: 2020/10/10

ملخص:

تسعى آداب ما بعد الكولونيالية لإعادة صياغة العديد من القضايا التي تنبثق عن علاقة الأنا بالآخر كسؤال الهوية والانتماء، والتماهي مع الآخر، والانشطار، والتغريب، وغيرها من المفاهيم البارزة في النقد ما بعد الكولونيالي، والتي يطرحها الخطاب الروائي بوصفها طريقة لمقاومة الآخر، وخطابا مغايرا للخطاب الإمبريالي ومناقضا له.

لذا نحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على قضية الهوية والانتماء في الخطاب الروائي الجزائري ما بعد الكولونيالي، من خلال مقارنة ثقافية، متخذة من رواية (الانطباع الأخير) لـ(مالك حداد)، ورواية (ما لا تذرؤه الرياح). (لعبد العالي عرعار) نموذجا.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية - الهوية - الانشطار - وعي الذات- الانطباع الأخير - ما لا تذرؤه الرياح.

Abstract :

Postcolonial literature seeks to reformulate many issues that stem from the relationship of the ego to the other, such as the question of identity, belonging, identification with the other, fission, alienation, and other notable concepts in post-colonial criticism, which the narrative discourse shows as a

way to resist the other and as a discourse Contrary to and contradicting the imperialist discourse.

Therefore, we are trying through this study to shed light on the issue of identity and belonging in the post-colonial Algerian narrative discourse, through a cultural approach to Malek Haddad's (The Last Impression) novel, and Abdelali Arar's novel (What the winds do not disperse) as an example.

key words: Postcolonial - Identity – Fission – Self -awareness- the last impression- what is not dispersed by the wind.

مقدمة :

تعد نظرية (ما بعد الكولونيالية) من أهم النظريات الأدبية والنقدية التي تطرح العديد من القضايا الشائكة للتحليل والتفكيك، أبرزها جدلية الأنا والآخر، وثنائية المركز والهامش، والشرق والغرب، وتجليات الخطاب الاستعماري، والتغريب، بعد أن تشكّل الغرب باعتباره المركز في مقابل الشعوب المستعمرة باعتبارها تابع.

فقد أنتجت (ما بعد الكولونيالية) أدبًا -ما بعد استعماري- يرد على السرديات الاستعمارية (الخطاب الاستعماري) التي سعت لفرض هيمنتها الثقافية على الشعوب المستعمرة، وإعادة إنتاج سرديات مضادة للمكونات السردية الاستعمارية، ما جعل الروائيين العرب يهتمون بقضية (الأنا/ الآخر)، أو الصراع بين الكيانين الشرقي والغربي كرد فعل الشرقي تجاه صدمته بالحضارة الغربية، ونظرة الغرب للشرق، وأثر ذلك على هويته وانتمائه، لترميم تلك الهويات واسترجاع حريتها، وكذا مناهضةً للفكر الإمبريالي.

لذلك لا تعد قضية (الهوية) في الرواية الجزائرية مجرد موضوع روائي فحسب، إنما هي إشكالية ثقافية حضارية وجد فيها الروائيون مادة غنية من حيث الطرح، فاختلفت تجاربهم باختلاف زاوية النظر والظروف التي دفعت بهم إلى الكتابة، لتدّ الهوية في الخطاب الروائي الجزائري كنسق ثقافي نستشف من خلاله كينونة الذات وخصوصيتها، أي ما يميز الذات عن الآخر، لنقف بذلك على مبدأ الاختلاف مع الآخر كصورة تعكس الصراع الجدلي القائم بين الأنا (الجزائري) والآخر (الفرنسي)، وأثر هذا الصراع على الذات وانتمائها.

لذا سنقوم من خلال هذه الدراسة بتحليل روايتي (الانطباع الأخير) (لمالك حداد)، و(ما لا تذروه الرياح) لـ (محمد العالي عرار)، لمعالجة قضية الهوية والانتماء بالنسبة للذات الجزائرية من خلال الصراع النفسي الذي تعاني منه الشخصيات الروائية بين الانتماء الوطني من جهة،

والهوية المكتسبة من جهة ثانية، وذلك بربط الرواية بالسياق التاريخي والثقافي الذي يربط الأنا (الجزائري) والآخر (الفرنسي)، من خلال الإجابة على الإشكالية التالية : ما المقصود بالدراسات ما بعد الكولونيالية؟ وكيف ساهمت الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية في التعبير عن تأزم الذات وتفكك الهوية في ظل العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر؟ هل استطاعت الذات إثبات هويتها وتأكيد انتمائها في ظل التأثير الامبريالي؟

- وهو ما سنجيب عنه من خلال اعتماد المنهج الثقافي في قراءة للمدونتين.

1- ما بعد الكولونيالية :

أصبح مصطلح (ما بعد الكولونيالية) تسمية لنظرية من الدراسات الثقافية التي ساهمت في تبني مشروع كتابي ينحو إلى تفكيك الخطاب الاستعماري، وقد أُعطي له عدة تعريفات كان أبرزها مصطلح (ما بعد الاستعمار)، ويستخدم هذا المصطلح "ليشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا الحالي، ويرجع هذا الاستخدام إلى استمرار هذا الانشغال طوال العملية التاريخية التي بدأت بالعدوان الإمبريالي الأوروبي"¹.

ويعرّف (سعد البازغي) و(ميجان الرويلي) مصطلح (الخطاب الاستعماري) و(نظرية ما بعد الاستعمار) في قولهما: "يشير هذان المصطلحان اللذان يكملان بعضهما البعض إلى حقل من التحليل ليس جديدًا بحد ذاته، لكن معالمة النظرية والمنهجية لم تتضح في الغرب إلا مؤخرًا مع تكثيف الاهتمام به"²، وهي رؤية تنطلق من اعتبار حقل الدراسات الكولونيالية وما بعدها قد كانت له ترسبات ساهم في ظهورها العديد من الكُتّاب والنُقّاد في الغرب، تركز بالأساس على الخطابات التي تناولت العلاقة التي ربطت الشرق بالغرب.

حيث يشير المصطلح الأول- (الخطاب الاستعماري)(Colonial Discourse) إلى "تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب، على أساس أنّ ذلك الإنتاج يشكل في مجمله خطاباً متداخلاً بالمعنى الذي استعمله (فوكو) (Foucault) لمصطلح خطاب"³.

أما مصطلح (ما بعد الاستعمارية)(Post Colonial Theory) فهو تحليل "ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهي، وأنّ مرحلة من الهيمنة - تُسَمَّى أحياناً المرحلة الكولونيالية- قد حلّت وخلقت ظروفًا مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع معيّن، فبينما يرى بعضهم انتهاء الاستعمار التقليدي وبالتالي انتهاء الخطاب المتصل به وضرورة أن يتركز البحث في ملامح المرحلة التالية -مرحلة ما بعد الاستعمار- يرى بعضهم الآخر أن الخطاب الاستعماري ما يزال قائماً وأنّ فرضية (الما بعدية) لا مبرر لها"⁴.

وعليه فإنَّ مصطلح (أدب ما بعد الكولونيالية) يدرج تحته "آداب كل من البلدان الإفريقية وأستراليا، وبنغلاديش، وكندا، وبلدان منطقة الكاريبي... وتشترك هذه الآداب جميعا في أنَّ شكلها الحالي انبثق من خبرة الكولونيالية، وأنها أكدت نفسها عن طريق إبراز التوتر القائم مع القوى الإمبراطورية وتأكيد اختلافها مع فروض المركز الإمبراطوري"⁵، وكذلك يمكن أن نضيف إليه أدب البلاد العربية التي خضعت في مرحلة ما من تاريخها للاستعمار الأجنبي.

وقد ظهرت هذه النظرية حديثا "مرافقة لنظرية ما بعد الحداثة، وبالضبط في سنوات السبعين إلى غاية سنوات التسعين من القرن العشرين"⁶، أي أنه مصطلح يرتبط بالفترة الزمنية الممتدة من فترة الهيمنة الأوروبية إلى ما بعدها، وصولا إلى مرحلة تحرُّر الشعوب المستعمرة وأثر المستعمر في أدبها وثقافتها المعاصرين.

وتقوم نظرية (ما بعد الاستعمار) على فضح الإيديولوجيات الغربية، وتقويض مقولاتها المركزية، فإنَّ أكثر اهتمامها هو تهميش الثقافة الغربية وقيمها للثقافات المختلفة الأخرى، لذا "وجد كتاب ما بعد الاستعمار في تفكيكية (جاك دريدا) (Jacques Derrida) آلية منهجية لإعلاء لغة الاختلاف وتقويض المسلّمات الغربية، والطَّعن في مقولاتها البيضاء ذات الطابع الأسطوري، كما تأثروا كذلك بـ(ميشال فوكو) (Michel Foucault)، و(كارل ماركس) (Karl Marx)، و(أنطونيو غرامشي) (Antonio Gramsci)"⁷.

ويعد (ادوارد سعيد) (Edward W.said)، و(هومي بابا) (Homi .K. Bhabha)*⁸، و(جي سي سيفاك) (Gayatri Chkravorty (Spivak)*⁹ أبرز رواد نظرية (الما بعد الكولونيالية) ومنظروها، وما ميز هؤلاء الكتاب أنهم لا ينتمون إلى الدول الأوروبية إنَّما هاجروا إليها من المناطق المهمشة، ف(ادوارد سعيد) يعتبر أول من أسَّس هذا الحقل المفاهيمي الذي يُعنى بتفكيك وتشريح الخطاب الاستعماري، فقد استطاع أن "يفتتح حقلًا من البحث الأكاديمي هو (الخطاب الاستعماري)"¹⁰ متأثرا بـ(جاك دريدا)، و(غرامشي)، و(فوكو)، مبينا أنَّ العلاقة بين الشرق والغرب قائمة على السيطرة والهيمنة من خلال مفهومها الأساسي، خصوصا في كتاب (الاستشراق) و (الثقافة والأمبريالية)، من خلال قراءة تُعتبر النَّص حادثة ثقافية لا بد من ربطها بالمظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية، لذا ربط الخطاب الاستشراقي بزعة الاختلاف والتباين بين الشرق والغرب، باعتباره خطاباً يقوم على المقولات التي تنطوي عليها الأفكار التنويرية والنزعة الإنسانية المخادعة، ورأى أنَّه "لا زال ممتدا في الحاضر، وتحديدًا في علاقة الغرب بالإسلام كما تتضح في طريقة تناوله في وسائل الإعلام وتمثيله بصفة عامة"¹¹.

كما لا يمكننا بأي حال من الأحوال الحديث عن نظرية (ما بعد الاستعمار) دون الإشارة إلى (فرانز فانون) (Frantz Fanon)، المبشر الأول لهذه النظرية، حيث تضمن كتابه (معدبو الأرض/The wretched of the earth) أهم الأطروحات التي تفسّر العلاقة بين المستعمر والمستعمّر، وتحليلها نفسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، كما أنّه ينتقد السياسة الغربية في المستعمرات ويركّز على العنف الضروري المصاحب لعملية تفكيك الاستعمار ومقاومته، ويظهر أنه متأثرٌ بأستاذه (إيمي سيزار) (Aime Cesaire)، خاصة قضية (الزوجة)، لذلك "يبدأ كتابه (بشرة سوداء أفنعة بيضاء- Peau noir masques Blancs) باستهلال من كتاب (إيمي سيزار) (خطاب حول الاستعمار -Discours on Colonialism): «إنني أتحدث عن ملايين الرجال الذين بمهارة تم حقنهم بالخوف وعقدة النقص والذعر والعبودية والقنوط والإذلال»¹²، ليعالج (فرانز فانون) هذا العنصر المتعلق بعقدة النقص عند الأسود من منظور التحليل النفسي.

1-1- الرواية ما بعد الكولونيالية :

بات مصطلح (ما الكولونيالية) يشير اليوم إلى كل الثقافات التي تأثرت بالسياق الاستعماري، وذهب المصطلح إلى أبعد من هذا عندما استُخدم ليعني بالأعمال الأدبية والفنية من خلال إعادة تاريخ الحضارة الاستعمارية من وجهة نظر أولئك الذين استعمروا وتم تهميشهم، في مجابهة القوى الإمبريالية أو مواجهة السرديات الكولونيالية. فالأدب الذي تأثر بالوضع الذي خلقتة الإمبريالية هو (أدب ما بعد كولونيالي)، وهو حقل من الدراسات الثقافية التي تعتمد على علم الاجتماع، والتاريخ، والنقد الأدبي، والفلسفة، والممارسات الثقافية المختلفة. لذا يروم هذا الحقل إعادة إعطاء الذات المهمشة حقها في التعبير عن نفسها وإعلاء صوتها، أي استعادة إنتاج ذاته من خلال تلك الأعمال الأدبية التي تعمل على إزاحة الصورة النمطية التي تبناها الغرب في خطاباته الأدبية، باعتباره همجيا وبدائيا ولا يفقه شيئا.

وعلى الرغم من الحرية التي حصلت عليها تلك الشعوب المستعمرة إلا أنّ مشكلة جديدة ظهرت على الساحة، ألا وهي أزمة الهوية إزاء الآخر/ المستعمر، ومن ثم ظهرت أزمات الاعتراب النفسي والمكاني، والإحساس بالدونية أمام الآخر، وكلها ملامح مشتركة بين كتابات (ما بعد الكولونيالية) بالرغم من اختلاف التجارب الاستعمارية بين دول العالم المستعمر.

2- الهوية :

مفهوم الهوية مفهوم واسع شأنه شأن العديد من المصطلحات التي يكتنفها الغموض والضبابية، نظرا لاهتمام الباحثين والدارسين به ضمن مجالات مختلفة، وقد ورد مصطلح

الهوية في " (المعجم العربي) مشتقاً من (الهؤ)، وهو ضمير منفصل يدل على الشخص المفرد، وفي قاموس (لاروس - la rouce) تعني الهوية مجموع الظروف أو الحثيات التي تجعل من الشخص شخصاً مميزاً أو محدوداً"¹³ ، وهو تعريف يركّز على العوامل الخارجية التي تتحكم في الإنسان وتكوّن شخصيته، إلا أنّ هذا التّعريف أهمل الجانب الحسي للإنسان واقتصر على الجانب الخارجي، ليضيف بذلك (جان لوك) (jan louk) البعد النفسي للهوية في قوله: "إنّ الدّات و"الهو (le soi أو self) هو ذلك الشيء (la chose) المفكر الواعي، كائناً ما كانت الصورة التي يتجلى فيها، روحية أم مادية بسيطة أو مركبة"¹⁴.

أما في العصر الحديث فقد ظهرت (الهوية) كمصطلح إجرائي، ويعتبر (اليكس ميكشلي) (Alex Mucchielli) من أبرز المنظرين الذين اهتموا بها، حيث "يطلق لفظ الهوية على نسق المعايير التي يُعرّف بها الفرد ويعرّف، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة"¹⁵ ، وهو تعريف يشمل مجموع الصّفات المميزة والمتكاملة والمتفاعلة فيما بينها لتمييز الفرد عن غيره. وقد تبدو حاجة الذات للكشف عن كينونتها من خلال الآخر والتضاد معه على حد تعبير (ادوارد سعيد) في أنّ "أزمة الهوية لا تظهر إلّا في المجتمعات التي تدخّل في ديناميكية الحداثة، الأزمة هنا مفهومة على أنّها مجرد بدء الجهد المؤلم أو المفرح في تحديد الذات"¹⁶ ، بمعنى أنّ بداية الأزمة لم تبدأ إلا باكتشاف الغرب للأنّا (الشرق)، كما يمكن أن تنشأ أزمة الهوية نتيجةً لمتغيرات متعددة تطرأ عليها، فتكون الأزمة من خلال فكرة عدم تقبل العقل تلك المتغيرات الفكرية أو الإيديولوجية أو الثقافية، وهو ما بدوره يشكل خطراً على نشوء هوية مفترضة.

كما تتعالق (الهوية) بعدّة إشكاليات ضمن العلاقة التي تربط الأنّا بالآخر كالاغتراب-التثاقف- وعي الذات ...، ما جعلها تحتل مساحة واسعة من الخطاب الروائي العربي، ومن أبرز هذه الروايات: رواية (أديب) (لطله حسين)، و(عصفور من الشرق) (لتوفيق الحكيم)، و(موسم الهجرة إلى الشمال) (لطبيب صالح)، و(الحي اللاتيني) (لسهيل إدريس)، وغيرها من الأعمال الروائية التي تجسّد الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، والتي تقوم على تصور يقضي بتجنيس العلاقة بينهما، وأنّ الصراع الأزلي بينهما هو صراع بين الذكورة والأنوثة، أي بين المادي والمثالي (أي الشرق الروحاني).

وإنّ كانت أغلب الأعمال المذكورة سالفا تسرد رحلة البطل إلى الغرب، فإنّ المدونتين التي اخترتهما رحلة عكسية قام بها الآخر مستعمراً، لنكشف من خلال مقاربتنا عن الأثر الذي يخلفه المستعمّر على الدّات والشّرخ الذي يصيبها إزاء التصادم بين ثقافتين وعالمين مختلفين.

3- تشظي الهوية ورفض الانتماء :

تصدر المركزية الغربية على تصوّر يقوم بأفضليّتها على باقي الشعوب والأمم، فهي تسعى إلى إنتاج صورة مشوهة للآخر (العرب)، وهو ما وُلد لديها تَضخُّم الإحساس بالذات والتفوق والسيطرة، لذا نجد الاستعمار الفرنسي اعتمد خطابا ثقافيا تنوعت وسائله وأشكال هيمنته، مركّزا بذلك على مجموعة من الأنساق التي تتعلق بالذات، فهو يصوّر "المستعمرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطة بسبب أصلهم العرقي، وذلك لكي يبرّر فتح هذه الشعوب، ولكي يقيم بين ظهرانيها أنظمة الإدارة والتوجيه"¹⁷.

ونظرا لما يحمله (الخطاب الكولونيالي) "من لعب القوة، ومن مواقع ذواته المبتدلة، من ذلك مثلا: مفاعيل الطبقة، والجنس، والايديولوجيا، والتشكلات الاجتماعية المختلفة، والأنظمة الاستعمارية المختلفة، فقد استطاع أن يجعل النظام الكولونيالي ينتج المستعمرين بوصفهم واقعا اجتماعيا هو آخر"¹⁸، عبر رسم حدود أمة خاضعة تحتاج إلى توجيهها، فتفرض بذلك سيطرتها عليها، فجعل (الشرق) موضوعا معرفيا لاستغلاله اقتصاديا، والسيطرة عليه عسكريا. وقد أصبحت (الهوية) تمثل هاجسا وإشكالية للذات العربية، إذ أننا ومنذ تقاطعنا مع الآخر / (الغرب) في لقاءه بنا، أو لقاءنا به، ونحن نعيش حالة من "السيزوفرنيا"*¹⁹ (الإبستمولوجية)²⁰ على حد تعبير (داريو شايفان) (Dariush Shayegan)، فهي لحظة لقاء التراث بالحدثة، حيث تجد الذات نفسها تعاني التصدع والانقسام بين (التاريخانية) و (الترميزية)²¹، ليكون هذا التمزق الداخلي بين حالتين أو مستويين .

فالبحث عن هوية بديلة خارج الأوطان العربية تصل في أحيان كثيرة إلى حد تبني الجنسية الجديدة، وهذا ما لامسناه في رواية (مالا تذروه الرياح) ل(محمد العالي عرعار)، وهي رواية تنتمي إلى أدب (ما بعد الكولونيالية)، لأنّ الكاتب يفكك علاقة المستعمر بالمستعمر من خلال إبراز العديد من النماذج التي تُظهر لنا النظرة الدونية للمستعمر، وما أفرزته هذه الثنائية الضدية من صراع وعنّف واستلاب ضد الأنا الجزائري.

فبطل الرواية هو شاب جزائري اسمه (البشير) تم تجنيده من قبل قوات الاحتلال الفرنسي لينتقل إلى فرنسا، وهناك يجد حياة مختلفة عن الحياة التي كان يعيشها، فينمّر بتلك الحضارة، وبعمال نساءها، وهو ما يصفه لنا السارد في لقاء البشير بمدام (فرانسواز) في أحد شوارع باريس، حيث يقول السارد على لسان البطل: "يا للمرأة الشجاعة التي تخترق الشوارع بمفردها دون حارس أو حام، يا لقامتها المديدة وجمالها الساحر الفتان... إنَّها تمشي مرفوعة الرأس معترزة بنفسها، وتدعو إلى الإعجاب، هذه المرأة التي يمكن للمرء أن يفخر بها... إنَّها نعم المرأة في جميع النواحي، في الشجاعة ومقارعة الصعاب، وفي الجمال"²²، وهي نظرة احترام

جعلته يتنكر لذاته ويرغب في التماهي مع الآخر ويجعله محل إعجاب، وقد برزت هذه النظرة مع الرحلات التي قام بها المثقفون العرب إلى بلاد الغرب، وقد انهمروا بحضارته إعجابا وافتتانا، وبالتالي مَرَكزًا للعلم والحرية والتقدم، والإشباع الغريزي، ولكنهم سرعان ما استيقظوا على حقيقته المادية باعتباره مناقضًا لكل القيم والعقائد والثقافة التي يتمتع بها المجتمع الشرقي، فهما بذلك يعكسان ثنائية المادة والروح.

فانهار الأنا بالآخر هو انسجام مع ما تقررته المركزية الغربية التي تقول "بالخصوصية المطلقة لتاريخ الغرب الذي أنتجته عوامل خاصة داخلية، وأثمر عن حضارة غنية ومتنوعة، ثم التأكيد على أَنَّ المجتمعات التي تريد أن تبلغ درجة التَّقدم التي وصل إليها الغرب ليس أمامها إلا الأخذ بالأسباب ذاتها التي أخذ بها الغربيون أنفسهم، وليس أمام تلك المجتمعات إلا التخلص من خصوصياتها الثقافية، لأن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها وهي المعيقة لتطورها"²³، وهو ما يدفع الفرد للتساؤل عن كينونته وما يمكن أن يميزه عن الآخر، فيعود إلى ماضيه، وهي أسئلة مشروعة في ظل ما تعانيه الذات العربية إزاء الآخر.

إذن هي الصدمة التي وضعت الذات على عتبة جديدة من التفكير فانزعجت من سباتها العميق وازداد وعيها بالمسافة التي تفصلها عن الآخر (الغرب)، لذا كان عليها أن تواجه هذه الصدمة وأن تعيد النَّظْر في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، إلاَّ أنَّ ما تمخض عن هذه الصدمة لحظةً انهيار عاشها الأنا تجاه الآخر وتجاوزها إلى مستوى التقدير، في مقابل تقزيم شخصية الذات وشعورها بالنقص، وهو ما نلمسه في وصف الراوي لإعجاب (البشير) بالعساكر الفرنسيين في قوله: "كم هم أقوياء...كم هم عزيزو الجانب...إنهم يسيطرون على كل شيء...إنه لشرف عظيم أن يكون الإنسان إلى جانبهم"²⁴، فهنا يعظم (البشير) من الآخر وفي المقابل يقلل من شأن(الأنا) ويجعله في مرتبة أدنى، لأن (الآخر) مارس رغبته في التملك، وهو مبدأ يقوم على السيطرة.

كما يطرح الكاتب عبر مساره السردي أشكال الهيمنة التي يسلطها الآخر ضد هوية الأنا الجزائري، وإن كانت اللغة تمثل أحد مقومات الهوية الوطنية الجزائرية فقد سعى المستعمر الفرنسي للقضاء عليها من خلال فرض لُغته، و تدمير دُور التعليم والزوايا التي تعلم مبادئ اللغة العربية، وفرض ثقافته ولغته الفرنسية كلغة رسمية في المدارس، وهي سياسة استيطانية تقوم على تغريب أبناء المستعمرات عن هويتهم ولغتهم وثقافتهم، وتجسيدها للواقع المرير الذي أحقه العدو بالبنية الثقافية للمجتمع الجزائري.

وفي السياق ذاته يطرح الكاتب إشكالية التعليم كجزء من المبررات التي اتكأ عليها المستعمر في استعمار الجزائر ووصايته التي تستند إلى قاعدة تنوير الشعوب ونقلها إلى مستوى الحضارة الأوروبية، والتي تراها فعلا مشروعا، فقد كان للمدارس الفرنسية دور مهم في تفكك الهوية الوطنية واضمحلالها، ف(البشير) كان معجبا بمعلمه، وظهر ذلك التأثير في قول السارد: "إنه مهبور بمعلمه... يتفرد في وجهه، وفي ثيابه وفي كل ما يحيط به... فيجده ساحرا محببا إلى نفسه، يود أن يقلده فلا يستطيع، ويود أن يستمتع به فلا يقدر"²⁵.

فلا شك أن توصيات المدرسة تؤكد على غيرية الآخر أي (المجتمع الفرنسي)، من خلال نشر قيم مخالفة للمجتمع الجزائري، وهي وسيلة ثقافية ذات أبعاد سياسية، فعندما وصل (البشير) إلى فرنسا سئل إن كان يريد أن يتعلم، فأجاب: "نعم يا سيدي"²⁶، وهي إجابة سريعة يؤكد من خلالها السعي للتشبه بالآخر والتشبع بثقافته، وهو ما يعني اكتساب هوية جديدة من خلال استبدال اللغة الأصلية -التي هي أحد ركائز الهوية الوطنية- بلغة أجنبية. فتغرب الذات عن ثقافتها من خلال تغيير مفهوم الهوية، والوطن، والانتماء.

ليمثل بذلك البعد الثقافي أحد استراتيجيات الهيمنة التي يوظفها المستعمر، فيسعى إلى تذويب الذات في الآخر، وهو ما ورد في المقطع السردي التالي: "سنخلق منك إنسانا آخر، إنسانا شجاعا، إنسانا ذا قوة،...ستصبح قويا جدا إذا ما اجتهدت ونلت الأوسمة ورضي عليك رؤساؤك"²⁷، لتتبني الذات نظرة دونية واحتقارية لنفسها في مقابل تعظيم الآخر والانهيار به، فتندسخ الذات عن انتمائها وترغب في التماهي مع الآخر.

ففي اللحظة التي يقارن فيها (البشير) واقعه بموطن الآخر، يظهر حجم الأزمة النفسية والتوتر الذي يعيشه، لثُرب هذه المفارقة اعترافا منه بالمسافة الكبيرة التي تفصل الآخر عن الأنا، فلا يكون الصراع خارجيا إنما داخل الأنا، وفي أعماقها، فتظهر شخصية (البشير) كشخصية هامشية تسيطر عليها رؤية غير دقيقة للأشياء، تتحكم فيها معايير رجعية في نظرتها للواقع، فكانت ترى الجمال والحضارة في كل ما هو فرنسي، والقبح والتخلف في كل مظاهر الواقع الجزائري"²⁸.

وهنا تظهر لحظات تشظي الهوية ورفضها في علاقة قائمة على تبعية المستعمر للمستعمر، وهو ما ظهر من خلال أفعال البطل، فقد جعله الخوف من الناس يخفي كل معلوماته خاصة في حديثه مع (فرانسواز)، حيث ادعى أنه فقد عائلته في الجزائر على إثر انفجار قام به الثوار إذ يقول: "فأنا قد فقدت أفراد عائلتي جميعا في الجزائر، إثر هجوم خاطف قام به الثوار على المنطقة التي نساكن فيها، وقد صدمت أمام ذلك الحدث...وأنا الآن لا أوليه أية اهتمام"²⁹.

كما نجد العديد من المحطات التي تكشف عن انسلاخ (البشير) عن هويته ورفضه لها، فقد كانت أوّل الأعمال التي يقوم بها إزاء المجندين القادمين من الجزائر هو الاطلاع على أسمائهم وعناوينهم لكي يتفادى اللقاء بأحد الأشخاص الذين قدموا من قريته، فهو لا يريد سماع أخبار عائلته، ويتضح لنا ذلك من خلال المقطع السردي الذي يتساءل فيه السارد عن مصير العلاقة التي تربطه بأهله في قوله: "...فما الفائدة من ذلك يا ترى؟ ماذا يهمهم من أحواله؟ ألم تتقطع العلاقة بينه وبينهم منذ اليوم الذي عبر فيه، ونزل فيه تربة فرنسا"³⁰.

و يعدُّ المشهد الذي يصور (البشير) أمام المرأة من أبرز المشاهد التي كشفت عن المساحة المضطربة للعالم الداخلي لذاته، بحيث كانت المرأة تعكس له صورة والده، وعليه تكون المرأة أداة فعالة في ربطه بين الماضي الذي يهدد وجوده والحاضر الذي يمزقه، فالشبة الذي يجمعه بوالده جعله يعود لأصله، لملاحه العربية، لتفاصيل حياته التي حاول مسحها، فيحاول الهروب من تلك الصورة لأنّها تسبب له ألماً، وتحاول أن توظف ضميره، وهو ما يبينه لنا قول (البشير) بعد رؤيته للمرأة: "لقد سئمت من وجهي، لأنّه يشبه بعض الناس، لا أود رؤيتهم مدى الحياة، فلماذا قمت بهذا التغيير المهذب"³¹.

وهي إشارة أخرى للسبب الذي دفع (البشير) لتغيير شكله وملاحه الخارجية ليتشبه بالغرب ويرتقي إلى المستوى الذي هم عليه، وهي محاولة للتماهي مع المستعمر، متخلياً عن القيم الجزائرية من خلال لباسه وشكله وترسيخاً للانتماء الثقافي المغاير، وهو الشيء الذي أنكره (فرانز فانون) في كتابه (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء)، لأن ذلك لا يغير الحقيقة التي هو عليها.

4- سؤال الهوية والتماهي مع الآخر :

شكلت الثورة المرجعية التاريخية و المبدأ الراسخ في الهيكل المعماري للرواية، حيث تطرح رواية (الانطباع الأخير)- الصادرة سنة (1958) تاريخ اندلاع الثورة التحريرية - للروائي الجزائري (مالك حداد) أسئلة الهوية المطموسة في عالم بقيم مختلفة تسودها ثقافة الآخر الأجنبي، والتي تغلغت في مكامن الذات حتى باتت ركيزة من ركائز وعيه الجمعي، فقد انصب اهتمام الكاتب على شخصية مثقفة ثقافة غربية، كاشفاً من خلال ذلك عن الأزمة التي تعانها في ظل تحديات الهوية التي فرضها المستعمر، فخلق نموذجاً لذات تسيطر عليها ثقافة غربية في بلد عربي.

وقد اختار الكاتب مدينة (قسنطينة) مسرحاً لأحداثه، مسلطاً الضوء على حياة البطل (السعيد) الذي يعمل مهندساً معمارياً، وكان مشروع تخرجه تشييد جسر في المدينة، إلا أن الجسر قد تم استغلاله من طرف الفرنسيين، الأمر الذي دفع الثوار إلى البحث عن سبيل للتخلص من هذا الجسر وتخريبه.

وبالرغم من أن (السعيد) كان مرتاحا في مهنته سعيدا بها، ويحب فتاة فرنسية اسمها (لوسيا)، إلا أن حياته انقلبت رأسا على عقب، فلم يكن يفكر في الفعل الثوري ولا الانضمام له بل كان يتعامل مع الآخر (الفرنسي) بكل ود، إلى أن اتصل به الثوار وطلبوا منه أن يزودهم بمعلومات تمكنهم من تخريب الجسر، فتولّد صراع داخلي لدى (السعيد)، استيقظ فيه الضمير الوطني، فتجاذبته الصراعات بين هناء عيشته في كنف المستعمر، ووعيه بأصله وهويته من خلال مساعدة أبناء وطنه، جعله هذا التجاذب يعيش تشرذما وضياعا داخليا، بل ولّد فيه شعورا بالاغتراب النفسي، والانهيار والضعف، وعمّق فيه فكرة فقد الإحساس بالهوية والانتماء، وبذلك تنشطر الأنا (الذات) إلى أنوات، ويصبح كل شيء غريبا عنه جراء الأحداث المتتابعة التي تحدث له.

كما طرح الكاتب قضية حصول الجزائريين على المواطنة الفرنسية، وهو الأمر الذي يسعى إليه المستعمر من خلال تذويب الذات في الآخر عبر سياسة التجنيس، لأن اكتساب (السعيد) لصفة المواطن الفرنسي، والتي تعتبر عنصرا أساسيا في تشكل هوية الفرد تعزّز انتماءه إلى سياق ثقافي يغيّر السياق الثقافي الأصيل، وهو سياق سيدفعه إلى تغيير نمط تفكيره وأسلوب حياته وكل ما يتصل بهويته، لتكون إجابة (السعيد) على هذه السياسة في قوله: "لا أدري إن كنت وطنيا. ما أعرفه، وأعرفه جيدا أني جزائري. بل إنّي أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر"³².

إنّ البطل يعترف بانتمائه، لكنه لا يزال في صراع داخلي بين المواطنة الفرنسية، والأصول الجزائرية، وهو الأمر الذي لم يكن يعنيه من قبل، بمعنى ألا يدرك (سعيد) معنى الوطنية؟ إنّ الحياة التي كان يعيشها (السعيد) بين المستوطنين لم تدع له المجال للبحث عن ذاته أو وطنيته إلا أن الأحداث وتسلسلها جعلت هذا السؤال يُطرح عليه، رغم أنه يجهل إن كان مواطنا جزائريا أم لا.

تلك التساؤلات التي كانت تطرح نفسها على (السعيد) حول هويته وانتمائه، بين الوطنية الجزائرية وبين الجنسية الفرنسية، هو ما يكشفه لنا السارد من خلال المقطع السردي التالي: "لم يتجرأ (السعيد) على الاعتراف، لأنّ (لوسيا) كانت تمرر يدها على شعره (...). لم يتجرأ (السعيد) البوح بأنّه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين"³³، لأنّه يخشى الكلام، فيلتزم الصمت الذي قد يكون في أحد أشكاله علامة الموت واندثار الهوية، وعلامة على القهر والاستلاب بالنفي خارج دائرة الفعل.

فهو مقتنع بالحياة التي يعيشها وتمسك بكل ما تحمله من مظاهر حضارية ورفاهية، في مقابل الوطن الذي هو جزء منه ويحتاج مساعدته، ما جعل مجموعة من الهواجس تقف بينه وبين واقعه، فالذات تنزع إلى حالة من الانفصال النسبي أو الكلي عن مجتمعها، ذلك أنّ الاندماج مع الغرب والتماهي معه دون الأخذ بالاعتبار اختلاف السياقات التاريخية والثقافية التي تميز الغرب عن العرب، فإنها في نهاية المطاف تقويض لنسق ثقافي محمل بجملته من الشحنات الوجدانية، والدينية، والنفسية، والفكرية، والاجتماعية بما يستبدل به مجموعة من الأنساق الثقافية التي لها محمولاتها الخاصة ورهن ذلك بهذا، وهو خيار وإن ادعى التحديث فإنه لا يسهم فيه كطرف فاعل، إنّما كطرف منفعّل يتلقى ما يصل إليه دون تمثل حقيقي³⁴.
إنّ قمة الأزمة عندما بات الوعي مهجنا بالغرب ضعيفا في تمسكه بالوطن، ليثبت لنا الكاتب عن وجود الشرخ الهوياتي الذي يمر به (السعيد)، وكان تخريب الجسر بمثابة نقطة حاسمة تحدد مسار مرحلة جديدة من حياته، فبعد أن كان يمثل أحد نجاحاته، أصبح اليوم يشكل تهديدا لانتمائه، لذلك كان إعلان تهديم الجسر بالنسبة إليه هو نهايته وفناؤه، فقد "عرف (سعيد) عن طريق الصحف بأن جسره خرب. أية فكرة هاته التي تجعلك تبحث في ركن الوفيات عن الإعلان عن موتك..."³⁵، وهنا تعكس لنا الشخصية حالات سيكولوجية متباينة، فهي الهادئة والثائرة، والحزينة، والقلقة، وهذه التقلبات مرتبطة باللاوعي، وهو ما يجعله يبحث عن الإجابة على عدة تساؤلات يطرحها الواقع ويتشاطرها ماضي الذات وحاضرها.

5- انشطار الذات :

1-5- مفهوم الانشطار (Dissociation): يأتي (الانشطار) بمعنى الانقسام، ويذهب (بيير ماكلر) (Pierre Maclar) أنه "إعلان أقسام من الشخصية عن حالة طلاقها عن بعضها البعض، محطمة العلائق فيما بينها ومحتفظة بجواز فقدان الذاكرة فيما بينها في الأماكن التي يفترض أن تكون مرتبطة"³⁶، فتتشطر الذات أو الشخصية إلى ذوات تفتقر إلى التفاعل فيما بينها، وقد تتصارع مكوناتها (الأفكار الرغبات، العادات، ونظراته لذاته وللمجتمع)، وهو ما يجعل الذات تعيش صراعا وتشتتا داخليا.

2-5- انشطار الذات بين الأنا والآخر:

يشكل التاريخ أحد أبعاد هوية الذات، أي أنّ هوية الذات تكوّن حاضرها بالاستناد إلى ماضيها وتجاربها، وبفقدان الماضي تضيق الذات في حاضرها فتكون عرضة للتفكك والانشطار، وهو ما طرحه لنا الكاتب (محمد العالي عرعار) في رواية (ما لا تذروه الرياح)، من خلال شخصية (البشير)، فقد غيّر اسمه ليحدث قطيعة مع ماضيه، وهو ما نلمسه في المقطع

السردي التالي من خلال قوله: "فأنا لا أسمى (البشير)، واسمي الحقيقي إن كنت تود معرفته، هو ((جاك))، فأنا لا اعرف (العباسي) هذا الذي تتكلم عنه، وأنا غير متزوج"³⁷.

وقد كان للثقافة دور في عملية إقصاء الذات وتهميشها، فالـ (البشير) ترك زوجته (ربيعة) التي تمثل مقاييس الثقافة العربية في مقابل (فرانسواز)، امرأة بمقاييس جسدية وثقافية غربية، إنه اعتراف بالآخر وثقافته، وانهار بمقومات الحضارة الغربية، لذلك حينما انتقد أصدقاؤه الفرنسيون الجزائر ووصفوها بالتخلف كانت ردة فعله عنيفة وقال: "أنا لست جزائريا. والجزائر لا تهمني. لقد أصبحت مثلكم فرنسيا. لا علاقة لي بما هو في خارج فرنسا"³⁸.

لذلك كان (البشير) يرى أنّ تغيير اسمه هو الحل الذي يحقق من خلاله قطيعة مع ماضيه ويُبعد عنه كل الشبهات، لأنه أراد أن يكون شخصا آخر، وله تفكير جديد، وله قلب آخر، وأن ينسلخ عن ذاته القديمة، وفي هنية ترده الحقيقة المرّة، فهذا التغيير لم يتغلغل إلى روحه، فهو اجس الماضي باتت تلاحقه، ولم يستطع أن يقلب صفحة الماضي ويمزقها، لأنه كان في الكثير من الأحيان يحن إلى أهله وتداعب الذكريات مخيلته، ففي كل مرة كان يسمع فيها اسم أحد أفراد عائلته "يجعله يتألم، ويعاني كثيرا، فيرى أحيانا أنه فعل فعلا أدا، ويرى أحيانا أخرى أنه ظلم نفسه وظلم أهله"³⁹، لكنه يصبرُ على أن يكون قويا ولا يجعل العاطفة تتغلب عليه.

كما تتداعي الذكريات لتمارس خناقها عليه، فكما وقف أمام المرأة ليرى نفسه لا يجدها لكنه "فجأة يجد نفسه ينظر إلى وجه آخر، ليس له هو لكنه لأحد الأشخاص المقربين إليه"⁴⁰، وهنا تمارس الذاكرة سطوتها على النسيان الذي يهدد وجود (البشير)، فتبحث عبر تفاصيل الماضي عن تلك الهوية المغيبة في طي النسيان، ويحاول الهروب من تلك الصورة التي تشبهه واللجوء إلى أحياء باريس، حيث يجد هناك السعادة المنشودة، فكل شيء مباح، هذه التقلبات التي يمر بها (البشير) تعكس لنا حالة التمزق والتصدع الذي تعاني منها الذات بين ثقافتين وفضائين مختلفين، تمزق داخلي بين ماضيه الذي يشكل تهديدا لواقعه الجديد، وحاضره الذي يعكس الحضارة الغربية، والتقدم، والحرية، والتي تمثل تعطيلا للبنى الفكرية والثقافية والحضارية التي ينتمي إليها.

وبدا التناقض والتغاير واضحا في شخصية (البشير)، فهو يعيش في وضعين مختلفين بين الجزائر وفرنسا، منكرا لذاته في محاولة الانتماء للوطن الجديد، لكنه يفشل في ذلك، لأنه لم يستطع تغيير روحه وعواطفه، فهو لا يفكر مثلهم، وهذا الأمر بدا واضحا من خلال موقفه حينما أخذه أصدقاؤه إلى أحد الشوارع التي تعج بالنساء اللواتي يبعن أنفسهن مقابل مبالغ زهيدة، فيقارن من خلال تلك المشاهد بين الجزائر وفرنسا قائلا: "أ يوجد هذا الشيء في فرنسا؟

البلاد المتقدمة التي تحتل الأقطار وتستعمر القارات ويكاد رأسها يلمس السماء من شدة الكبرياء والاعتزاز بالنفس، ولكن إنَّ هذا لا يوجد في الجزائر رغم أنها بلاد متأخرة... إنَّ شعب الجزائر لا يرضى بأن يشمل مجتمعه على فئات مثل هذا"⁴¹.

كما يحاول الكاتب أن يمثل الشَّرخ الذي عانت منه الذات في ظل المعمر من تفكك لهويتها والانسياق وراء ثقافة الآخر، فقد كان كلِّما تذكر ما قام به لفرنسا يتألم، و ينتابه الشعور بالأسى، وهو ما نرصده من خلال قوله: "سأكفر عن ذنوبي (...). حتى أستطيع أن أمحو عاري وأحول تاريخي القاتم إلى أيام بيضاء ومستقبل زاهر"⁴².

لذلك يعكس لنا الكاتب عن التشردم والصراع الداخلي الذي تعاني منه الذات في فضاء الآخر بعد أن انسلخت عن كل قيمها ومبادئها لتتبني قيما مضادة وهوية مختلفة، كلها أمور تكشف لنا عن التأثير الكولونيالي أثناء فترة الاحتلال وبعدها، والتي كان ضحيتها الفرد الجزائري الذي بات في أغلب الأحوال بلا هوية ثابتة.

6- وعي الذات وتفكيك مركزية الآخر :

يؤكد (هومي بابا) (Homi k.Bhaba) على أنَّ : "الهوية) تقتضي تمثيل الذات في نظام الآخر المولدة للتباين"⁴³، أي أنَّ هويَّة الذات تتحدّد ضمن الجماعة التي تنعي إليها من خلال خصائص تميزها عن هذه الجماعة، في مقابل ذلك كل مجتمع يحمل خصوصية ثقافية تكون نقطة الخلاف مع الآخر، وإنَّ كانت هناك بعض المستويات قد تتعرض للاضمحلال في مقابل تبني مستويات جديدة، فإنَّ الهويَّة الجوهرية المتجذرة في الذات تثبت جذورها طالما أحسَّت أنَّ هناك ما يسعى إلى تفكيكها ومنافستها.

فالوعي بالذات عنصر مهم في رسم الحدود مع الآخر، وقد أسهم الوعي السياسي بضرورة الثورة على المستعمر، في بلورة رؤيا أكثر وضوحا فيما يخص العلاقة بين الأنا والآخر، فحين يطغى إحساس الأنا بظلم الآخر وهيمنته تبادر إلى الدِّفاع عن نفسها خشية الذوبان، فتقوي انتماءها إلى الجماعة وتتماهى بها من أجل الحصول على الاعتراف ومواجهة الإقصاء أو المسخ الذي هو الموت"⁴⁴.

فسؤال (روبير) لـ (سعيد) في (رواية الانطباع الأخير) حول وطنيته جعله يبحث عن هويته ويتساءل عن انتمائه، بعدما صار غريبا عن مجتمعه، فسؤال الهوية لا ينفصل عن العلاقة بين الأنا والآخر، لأن الاستعمار يسحق إحساس المستعمر بذاته، ومن هنا بدأ سؤال الهوية يؤرق (السعيد) نتيجة احتكاكه بالآخر الذي بدأ يهدد وجوده "إذ أنَّ المرء لا يدرك أهمية هويته إلا في لحظة مأزومة يواجه فيها المختلف، عندئذ يرتدُّ إلى مكوناته الأصلية، التي تمنحه الإحساس

بوجوده، أي بتميزه واختلافه عن الآخر، فيحس بضرورة الحفاظ على هذه المكونات مهما كانت التحديات⁴⁵.

ففضية (الهوية) يعاد طرحها عند الإحساس بتهميشها أو اختزالها، لذلك يحسم (السعيد) أمره في الجهة التي كان لابد له من الانضمام إليها من البداية، فتنصهر الذات في الجماعة (النحن) وتتماهى معها، ليزداد إحساسها بكيونتها، ويتولد لديها الشعور بالانتماء، فينصت (السعيد) إلى نداء الواجب الوطني ويندمج مع إخوانه الثوار في مهمتهم ضد المستعمر، ويطلعهم على المعلومات التي تمكنهم من تهديم الجسر الذي استغله المعمرون في العبور ومرور الدبابات إلى الجهة الأخرى بغية الاستيلاء على القرى والمداشر وتدميرها، وبهذا يكون قد ساهم في الوقوف ضد الآخر وتصفيته، الأمر الذي جعله يعترف بهويته قائلا: "تخرّب الجسر ... دخان ... من الآن فصاعدا لن تمر مواكب الموت من هذا الطريق"⁴⁶.

وبعد أن ساهم (السعيد) في تهديم الجسر، يؤكد على انتمائه، وهو ما تردّد في قوله: "إنّي كالآخرين، زوارقي الصغيرة لا تضيف شيئا ولا تنقص شيئا. إنّي كالآخرين، في شارع الرهبان، في سان ميشال، في الفوج أو في سانت ايتيان، إنّي كالآخرين، إنّي مع الآخرين، أفهم خبزهم وبندقيتهم، أتحدث عن أمي كما يتحدثون عن أمهم"⁴⁷، فتكرار جملة (إنّي كالآخرين) بمثابة دلالة تامة على انتمائه، ليجد إجابة عن السؤال الذي سألّه إياه (روبير) إن كان بالفعل وطنيا، لقد صار يدرك انتماءه للآخرين، إنّه مواطن جزائري وتلك الحياة التي كان يعيشها لا تشبهه تماما.

الأمر نفسه اتضح له من خلال تفسير تلك العلاقة التي ربطته ب(لوسيا)، فاتضح الفجوة التي تفصل بينهما، ف(لوسيا) رغم أنّها كانت تُكنّ مشاعر الحب ل(سعيد) فإنها كانت تكره بلده "(لوسيا) تحب (سعيد)، لكنّها لا تحب بلد (سعيد)"⁴⁸، فهي فرنسية ولا نستغرب كرهها للجزائر، إنّما تسعى ككل فرنسي للظفر بهذا البلد وبخيراتته، وهو حب مبني على المصلحة. لذلك قرّرت (لوسيا) المغادرة إلى بلدها الأصلي (فرنسا) بطلب من السلطات الفرنسية للتدريس هناك، ولكن قبل سفرها أصيبت برصاصة طائشة أودت بحياتها، ليكون موت (لوسيا) تجسيدا لزوح فرنسا ومغادرتها الجزائر، واكتشاف (السعيد) أنه لم يحبها يوما، لأنه لم يحاول الانتقام ممن قتلها، أدرك أنّه ارتباط من أجل الحياة كضرورة فرضها التاريخ وفرضتها الحرب ووجب التأقلم مع تلك المتغيرات، لذا نجده يقول: "لا شيء ينتهي بألفة، هذه المتغيرات تكوّن أنفسنا من جديد. بخوض حياة أخرى نصبح إنسانا آخر. يمكن الحفاظ على كل الآمال وفقدان الأوهام كلّها. لا يوجد وهم ممكن. الحقيقة ها هنا بعيوننا الهادئة القاسية. إنّها

تنظر إليك، لا شيء يقتلها، حتى برودتها الشخصية. يجب قلب الصفحة"⁴⁹، وعليه يكون (السعيد) قد فتح صفحته الجديدة التي يرى فيها مستقبل وطنه، متجاهلا بذلك الماضي الذي خطّه المستعمر.

ليتحدد مسار نهاية أحداث القصة باسترجاع الهوية والوطن، هنا يدرك الاختلاف فيتذكر ما قاله (ألبير كامو) (Albert Camus) في أحد مقالاته، وهو ما ورد في قول (السعيد): "أن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته"⁵⁰، أي الحصول على الحرية واسترجاع السيادة الوطنية. ليؤكد (الكاتب) أن الوطن قادر على أن يبعث من جديد بدماء أبنائه، قضية آمن بها وسعى لنصرتها بقلمه، فلا مكان لمن يخون الوطن ويغض الطرف عن جرائم المستعمر، ويبقى استرجاع السيادة شرطا لإحياء قيم المحبة والشرف والحرية، وإيدانا بميلاد الهوية الجزائرية.

أما بالنسبة إلى بطل رواية (ما لا تذروه الرياح) فقد عصفت به الأحداث وجعلته يدرك طبيعة العلاقة الحقيقية التي تربطه بالآخر الفرنسي، والتي كان يحاول تغييرها في كل مرة. إلا أن الذاكرة لعبت لعبة التجلي والانصهار في حاضر (البشير)، وأدرك أن ما كان يبحث عنه في الآخر (الغرب) لن يجده، وهو ما أورده السارد على لسان (البشير) في قوله: "إن كل ما يبحث عنه الإنسان في هذا البلد يجده، إلا الطمأنينة والسعادة والحب، فهذه أشياء ثلاثة منعدمة"⁵¹، وهي لحظة الوعي بالذات، والهوة الفاصلة بين موطنه الأصلي وبين البلد الذي كان يرى فيه السعادة المنشودة، فكلما احتدمت المواجهة مع الغير، زاد المرء تمسكا بمكونات هويته وخصوصيته.

ولعل من بين أبرز المواقف التي تثبت تمسك (البشير) بهويته أنه وجد الكثير من الكتب عند (فرانسواز)، فأصبح يقضي أغلب وقته في الاطلاع عليها، "وقد اهتم بدافع غريزي، أو بدافع ضميري، أو بدافع مجهول، بالكتب التي تبحث في تاريخ الجزائر"⁵²، هنا عكس لنا الكاتب صورة المثقف الجزائري الذي أدرك بعد اغترابه في بلد الآخر أنه لا يعرف كثيرا عن وطنه، وأن الكتب التي قرأها جعلته يتمسك أكثر بتاريخه وأرضه.

ومع مرور الأيام أصبح (البشير) يشق إلى زيارة الأحياء الفقيرة التي كان يذهب إليها رفقة (فرانسواز)، وهي أحياء تضم المهاجرين العرب أمثاله، لذلك أراد أن ينتقل ليسكن هناك، إلا أنها أبت عليه ذلك في قولها: "إن الخطر يكتنف هذه الأحياء، وإن الغرباء يعتدون على المواطنين... إن سكان هذه الأحياء عرب لا يفقهون الفرنسية"⁵³، وهنا تبرز نظرة الغربي للشرقي من خلال العداء المستحكم بينهما، وهي نظرة تقوم على الهيمنة والاستلاب من جهة، وكذا التركيز على الاصطفاء العرقي والطبقي والجنسي واللوني من جهة أخرى.

ومن هنا نجد الكاتب يقوم بتفكيك المركزية الغربية التي تتبنى الصورة النمطية للعرب بأنهم همجيون وأن الغرب كان يحمل رسالة تنويرية لهم، وهو ما يتجلى كذلك في موقف آخر تحدثت فيه (فرانسواز) للبشير وهي تصف الجزائريين وتتهم بأنهم السبب في قتل زوجها فتقول: " ذهب يبحث عن العلم فوجد الموت تنتظره... ذهب ليحي الجبهة... فقتلته الجبهة، تبًا لأولئك الذين قتلوه.. لم يرحموا شبابه ولم يراعوا فتونه.. فأخذوه أسيرا و نفذوا فيه الإعدام دون تأخير"⁵⁴، وهي صورة تجعل من الجزائري بدائي وهمجي وهي المصطلحات نفسها التي "أسدت خدمةً مُهمّةً لنظريات المعرفة المتمركزة أوروبا والإيديولوجيات (الامبريالية/الكولونيالية) ... لذلك تشير (ماريانا تورجوفنك) (Mariana Turgovnik) إلى أنّ مصطلحات مثل بدائي، وهمجي، وقبلي، والعالم الثالث... جميعا تتخذ من الغرب مقياسا وتعرف على خلافه أنه أدنى ومختلف وسهل الانقياد"⁵⁵. ومن ثم كانت الصورة التي تبناها الغرب، عن العرب صورة مرهونة بوعي إستشراقي حاول الوصول إلى تلك الصورة المزعومة، وهي صورة تختلف أيّما اختلاف عن الصورة الحقيقية للمستعمر.

فبعد أن كان (البشير) منساقا وراء ثقافة الآخر متماهيا معها، أدرك أن صوتا آخر يحارب بداخله معلنا عن انتصاره، وهو ما جعله يحسم صراعه الذاتي ويقرر العودة إلى وطنه، ويطلب من (فرانسواز) أن تحضر له وثائق العودة إلى الوطن، بعد أن اكتشف ما تتبناه من مواقف تجاه الجزائريين، وأنها استغلته لتجعل منه مختبرا لتجارها، وهو ما يدرجه الكاتب في قولها: " كنت أريد أن أجرب كيف يعمي العاشق ويتيه في حب عشيقته وهو لا يعرف أنّ هذه الأخيرة تستلذ عذابه وتعيش على آلامه... إذا كان هو يذبل ويضمحل فهي تنعش وتقوى... تركتكَ تتعذب كثيرا إلى أن وصلت إلى حافة القبر"⁵⁶.

ليعو (البشير) إلى بلده، وهو ما يظهر لنا في المشهد الذي يعرضه لنا السارد قائلا: "فها هو (البشير) الفتى المتحضر الذي جاء مرتديا البذلة الرائعة، مصففا شعره على أحسن شكل....ها هو (البشير) الآن يتلخّف برونوس قديم ممزق يحاول الاثثار به"⁵⁷. وهنا يرسم لنا الكاتب معالم الثقافة الجزائرية عبر البرنوس الذي يمثل نسقا ثقافيا يعكس قيمة الوطن والتراث، والتمسك به، نازعا عنه غلاف الحضارة الزائفة التي أغشت على بصره فلم يعد يرى حقيقتها، لذلك كان لعودة البشير لأرضه دور كبير في وعيه بانتمائه وتمسكه بهويته التي كاد يفقدها.

خاتمة:

لعل أبرز النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة هي :

- إنَّ نظرية (ما بعد الاستعمار) هي نظرية اعتمدها كُتَّاب المستعمرات المتحررة، والتي سخرت كل آلياتها الفكرية والمنهجية لمجابهة الرؤية المركزية الغربية من خلال إعادة النظر في مقولات (الخطاب الكولونيالي) وتقويضها، وتفكيكها، للوقوف في وجه التهميش والتغريب، وهو ما يعرف اليوم بـ(الاستغراب).
- تظل (الهوية) مسألة ثقافية قائمة تطرحها المتون الروائية (ما بعد الكولونيالية)، كاشفة عن تأثيراتها النفسية في الفرد من خلال إشكالية الاتصال بالآخر (الغرب)، ومن هنا يكون التأرجح بين الانتماء والانفصال سمة في الخطاب الروائي الذي يعالج إشكالية الانتماء الهوياتي، والتي يتم الكشف عليها من خلال الشخصيات الروائية (تصرفاتها، وسلوكاتها، أو من خلال الحوار، أو عبر فضاء الذات والآخر).
- شكّل المستعمر (الفرنسي) عاملاً أساسياً في تشظي الذات وتفكك الهوية الجزائرية، وهو ما حصل مع كل من شخصية (البشير) و(السعيد)، فقد عكست لنا كل شخصية أزمة الذات في ظل الاحتلال الفرنسي عبر فضاءات متعددة، فضاء الأنا (الجزائر) وفضاء الآخر (فرنسا).
- ما يميز النصوص الروائية الجزائرية من خلال سرد العلاقة بين (الأنا) و(الآخر) تركيزها على التناقض القائم بين الأنا (الجزائري) والآخر (الغربي) على مختلف الأصعدة (سياسياً، اجتماعياً، ثقافياً وحضارياً...)، وتتجاهل في الغالب علاقة الائتلاف بين هذه الثنائية والتي تعكس صور والتعايش والتثاقف بين الأنا (العربي) والآخر (الغربي).
- على الرغم من انزياح الذات عن هويتها إلا أنَّ جذور الانتماء إلى الوطن تبقى متأصلة، فتحن إليه وتعي الفارق بينها وبين الآخر.

قائمة هوامش البحث :

¹ بيل أشكروفت، غارث غريفيث، هيلين تيفين، الرد بالكتابة، تر:شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2006م، ص16.

² ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2007، ص158.

³ المرجع نفسه، ص158.

⁴ المرجع نفسه، ص158.

⁵ بيل أشكروفت، غارث غريفيث، هيلين تيفين، الرد بالكتابة، ص17.

⁶ جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، مساهمة في التأسيس لعلم الاستغراب، نحن وأزمنة الاستعمار نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية، ج 4، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، بيروت-لبنان، 2018م، ص22.

⁷ المرجع نفسه، ص25.

⁸ *هومي بابا: أستاذ الأدب الإنجليزي والفن في جامعة شيكاغو، وعضو الهيئة الاستشارية في معهد الفن المعاصر، وعضو هيئة المدراء في المعهد الدولي للفنون السمعية البصرية، وكلاهما في لندن، والموصوف بأنه من بين العشرين المفكرين الأبرز في حقبتنا، مؤلف (موقع الثقافة-1994)، و (محور الأمة والسرد-1990)، وكلاهما كان له نفوذ واسع ورفيع في تحديد ما تعنيه الدراسات الكولونيالية والثقافية في رسم آفاق النظرية المعاصرة. ينظر: هومي ك، بابا، موقع الثقافة، مقدمة المترجم، تر: نائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004م، ص34.

⁹ *سبيفاك: تعد الناقدة جي سي سبيفاك من المؤسسين الفعليين للخطاب الكولونيالي الجديد، وتعد كذلك أول منظرة نسوية بحق في مرحلة ما بعد الاستعمار، فلقد انتقدت الحركة النسوية الغربية، انتقادا عنيفا بتركيز اهتمامها على عالم البيض من الطبقة المتوسطة ومن جنسين مختلفين، وقد ركزت على ما أصبح يعرف في دراسات ما بعد الاستعمار باسم (الأتباع)... للإشارة إلى جميع المستويات المتدنية من "المجتمع الاستعماري" وما بعد الاستعماري، وخاصة في مقالها: (هل يمكن للتابع أن يتحدث؟ (1988)). ينظر جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، مساهمة في التأسيس لعلم الاستغراب، ص36.

¹⁰ ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص158.

¹¹ بيل أشكروفت، جاريت جريفيث، هيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية- المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي، أيمن حلبي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010م، ص261.

¹² نايجل سي غبسون، فانون المخيلة بعد -الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط1، 2013م، ص87.

¹³ أحمد منور، الأدب الفرنسي باللسان الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ب ط، 2007م، ص120.

¹⁴ المرجع نفسه، ص14-15.

¹⁵ اليكس ميكشيللي، الهوية، تر: علي وطفة، تنفيذ دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993م، ص7.

¹⁶ دلال البزري، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 1999م، ص108.

¹⁷ هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، ص151.

¹⁸ المرجع نفسه، ص152.

¹⁹ *السيزوفرينيا (Schizophonia): وهي في العربية ترجمة لمصطلح الفصام، والسيزوفرينيا هي: " كلمة يونانية تنقسم إلى شقين: Schiz معناها الانشقاق أو الانقسام، و Phrenie تعني العقل أو الفكر، أي انقسام

- العقل، .يتميز إكلينيكيًا بتفكيك الذهن، أي عدم التوافق الوجداني وعمليات هذيانية غير متماسكة تؤدي عادة إلى انقطاع الاتصال مع العالم الخارجي، وانعزال توحدي. ينظر: لكحل مصطفى، الكشف عن أداء الذاكرة الأوتوبيوغرافية عند مرضى الفصام، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان، 2010-2011، ص22.
- ²⁰ داريوش شايفان، أوهام الحداثة، تر: محمد علي مقلّد، دار الساق، ط1، 1993م، ص88.
- ²¹ المرجع نفسه، ص89.
- ²² محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1972م، ص99.
- ²³ عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف- المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م، ص33.
- ²⁴ محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، ص42.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص30.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص33.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص33.
- ²⁸ بشير بوبجرة، الشخصية في الرواية الجزائرية 1970-1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، 2006م، ص188.
- ²⁹ محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، ص132.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص67.
- ³¹ المصدر نفسه، ص89.
- ³² مالك حداد، الانطباع الأخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م، ص24.
- ³³ المصدر نفسه، ص24.
- ³⁴ عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، ص7-8.
- ³⁵ مالك حداد، الانطباع الأخير، ص128.
- ³⁶ حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005م، ص95.
- ³⁷ محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، ص74.
- ³⁸ المصدر نفسه، ص80.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص75.
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص85.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص82.
- ⁴² المصدر نفسه، ص218.
- ⁴³ سمير خليل، دليل المصطلحات ثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ب ط، ص316.

- 44 - ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، 2013م، ص 21.
- 45 المرجع نفسه، ص 13.
- 46 مالك حداد، الانطباع الأخير، ص 125.
- 47 المصدر نفسه، ص 97.
- 48 - المصدر نفسه، ص 38.
- 49 - المصدر نفسه، ص 121.
- 50 المصدر نفسه، ص 49.
- 51 محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، ص 140.
- 52 المصدر نفسه، ص 138.
- 53 المصدر نفسه، ص 139.
- 54 المصدر نفسه، ص 131.
- 55 بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، وهيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية- المفاهيم الرئيسية، ص 311.
- 56 محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، ص 202.
- 57 المصدر نفسه، ص 238.

قائمة المصادر والمراجع :

- مالك حداد، الانطباع الأخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008م.
- محمد العالي عرعار، ما لا تذروه الرياح، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1972م.
- أحمد منور، الأدب الفرنسي باللسان الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، ب ط، 2007م.
- أليكس ميكشيللي، الهوية، تر : علي وطفة، تنفيذ دار الوسيم للخدمات الطباعة، دمشق، ط 1، 1993م.
- بشير بوجرة، الشخصية في الرواية الجزائرية 1970-1983، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ط، 2006م.
- بيل أشكروفت، جاريث جريفيث، هيلين تيفين، دراسات ما بعد الكولونيالية- المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2010م.

- بيل أشكروفت، غاريت غريفيث، هيلين تيفين، الرد بالكتابة، تر: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، 2006م
- جميل حمداوي، نظرية ما بعد الاستعمار، مساهمة في التأسيس لعلم الاستغراب، نحن وأزمة الاستعمار نقد المباني المعرفية للكولونيالية وما بعد الكولونيالية، ج 4، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، ط1، بيروت-لبنان، 2018م.
- حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005م.
- داريوش شايغان، أوهام الحداثة، تر: محمد علي مقلّد، دار الساقى، ط1، 1993م.
- دلال البزري، الآخر المفارقة الضرورية، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت /لبنان، ط1، 1999م.
- سمير خليل، دليل المصطلحات ثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ب ط.
- عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف- المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1997م.
- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، ب ط، 2013م.
- ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 5، 2007م.
- نايجل سي غبسون، فانون المخيلة بعد -الكولونيالية، تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة-قطر، ط1، 2013م.
- هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، تر: نائيرديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004م.
- لكحل مصطفى، الكشف عن أداء الذاكرة الأوتوبيوغرافية عند مرضى الفصام، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم النفس، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان، 2010-2011.